الفصل الثالث: الفرق بين النظرية وعنصر المكان.

- ماهية عنصر المكان.
- النظرية وعنصر المكان.
- دور عنصر المكان في تطبيق النظرية.

obeikandl.com

obeikandl.com

ماهية عنصر المكان

يمكننا تعريف عنصر المكان على أنه (هو المكان أو مجموعة الأماكن التي دارت فيه أو فيها الأحداث الخاصة بعمل أدبي معين). فرواية مثل موسم الهجرة إلى الشمال دارت أحداثها في السودان ومصر وبريطانيا، ورواية أخرى مثل العجوز والبحر **The Old Man and the Sea** دارت أحداثها في منطقة ساحلية ما في كوبا.

تعرف الناقد على معطيات عنصر المكان الخاص بعمل أدبي معين، يعد أمرًا في غاية السهولة، إذ كل ما ينبغي على ذلك الناقد فعله، هو أن يسأل نفسه سؤال مختصر وبسيط، وهو:

- أين وقعت أحداث هذا العمل الأدبي؟.

ومن خلال قراءة الناقد للعمل الأدبي وغربلته لأحداثه، سيجيب بنفسه على هذا السؤال. وستكون فحوى إجابته بالتأكيد، هي تحديد وحصر معطيات عنصر المكان الخاص بالنص أو العمل الأدبي، الذي جرى السؤال عنه.

المتابع والمراقب جيدًا للحالة الأدبية ونصوص الأدب، يجد أن عنصر المكان يقوم بدورين أو مهمتين مختلفتين تمام الاختلاف. الدور أو المهمة الأولى هي أن عنصر المكان يعد من المكونات الرئيسية التي يقوم على أكتافها أي نص أدبي كان. أي أن النص الأدبي لا يقوم ولا ينشأ إطلاقًا في حالة غياب عنصر المكان عن بنية وتكوين هذا النص.

عنصر المكان كما ذكرنا آنفًا في التعريف، هو المكان أو الأماكن التي تدور فوق بقعتها الجغرافية أحداث العمل أو النص الأدبي. هل لكم أن تتخيلوا نص أدبي بلا أماكن؟. وكيف سيكون هناك وجود للأحداث في النص من حيث الأساس، في حالة غياب الأماكن؟. أم هل ستدور تلك الأحداث في الفضاء؟!.

بالتأكيد يستحيل أن يوجد نص أدبي بلا أماكن تستضيف أحداث هذا النص. حتى نصوص الأدب الخيالية والخرافية كما ذكرنا من قبل، يوجد بها أماكن، وبالتالي ليس بمقدورها الاستغناء عن عنصر المكان هي أيضًا. إذ يعد عنصر المكان أحد أهم صنوف المواد الخام التي يستخدمها الكاتب أو المؤلف، في كتابته وصناعته للنص الأدبي. فكما ذكرنا، يعد عنصر المكان مكونًا أساسيًا من مكونات النص الأدبي، ولا يقل شأن دوره وقيمته عن بقية مكونات النص الأدبي الأخرى كالشخصيات، واللغة، والحبكة، والثيمة، وغيرها.

المهمة أو الدور الثاني لعنصر المكان، هو أنه يعد أحد أهم آليات ووسائل ومعايير نقد وتفسير وتحليل نصوص الأدب. ولا يعتبر عنصر المكان كأحد أفضل وسائل أو طرق نقد النصوص الأدبية من فراغ، بالطبع لا ولكن لأنه يعد أحد أهم مكونات تأسيس وبناء هذه النصوص من حيث الأساس. وقد ذكرنا في مقتبل هذا الكتاب، أن أفضل من ينقد النص الأدبي، هو المكون والمشارك في تأسيس وبناء هذا النص.

إذًا كما قلنا أن عنصر المكان هو أحد المواد الخام أو مواد البناء التي يستخدمها المؤلف في بناء وتشييد نصه، نقول أن عنصر المكان هو أيضًا أحد المواد الخام أو مواد البناء التي يستخدمها الناقد في بناء وتشييد نقده.

أي أن أرنست همنجواي Ernest Hemingway عندما كتب روايته العجوز والبحر، استخدم عنصر المكان (والمتمثل في تلك الرواية في مواضع من الساحل الكوبي والمياه الكوبية)، كمكون رئيسي وأساسي، من المكونات التي بنا وشيد بها نصه. وجاءوا من بعده النقاد لينقدوا ويحللوا روايته، مستخدمين ذات عنصر المكان الخاص بتلك الرواية، ولكن هذه المرة كأداة أو وسيلة لفهم النص ونقده وتحليله.

خلاصة القول هي أن عنصر المكان يعد جزءًا أساسيًا من تكوين النص الأدبي، وكذلك من تكوين النقد الخاص بذلك النص. يعنى به كلًا من المؤلف والناقد على حد سواء، كما ويبحث

عنه القارئ أو المتذوق للنص، ويتحسس وجوده بين نقوش النص بشغف، كونه يحقق له الوصول إلى مرحلة شعورية متقدمة، تفتح أمامه أفق رحب من التخييل والتأمل، وتجعله يعيش جو النص في بيئته الحقيقية وبين شخصياته، وكأنه أحد هذه الشخصيات.

نحن في هذا الفصل لسنا بوارد التطرق إلى عنصر المكان (كأحد مكونات النص الأدبي)، بل ما يعنينا بالأساس هو التطرق إلى عنصر المكان (كأحد آليات وطرق نقد وتحليل النص الأدبي). فكل ما يعنينا ها هنا هو توضيح العلاقة بين عنصر المكان (الخاص بالنقد) وليس (الخاص بتكوين الأدب)، مع نظرية التحليل الجغرافي للأدب، والتي هي في النهاية تعد وتعتبر أحد إفرازات الغدة المسماة (النقد الأدبي)

النظرية وعنصر المكان

الناظر إلى نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، ربما يظن أنها قد جاءت كتقليد ومحاكاة لمفهوم عنصر المكان، والذي سبق شرحه بالقدر الوافي والكافي. كل من يراوده ذلك الظن أو الاعتقاد فهو بالتأكيد لا يلام، وإنما معه كل الحق في إطلاق هكذا ظن أو اعتقاد. فالتشابه بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وعنصر المكان، يبدو تشابهًا كبير وكبير جدًا.

عندما تحدثنا عن عنصر المكان، ذكرنا أنه يستهدف الأماكن والمواقع الجغرافية في النص الأدبي، وعندما تحدثنا عن نظرية التحليل الجغرافي، ذكرنا أيضًا أنها تستهدف الأماكن والمواقع الجغرافية في نصوص الأدب المختلفة. إذًا كلا المفهومين النقديين يدوران في فلك الجغرافيا.

الكلمة المفتاحية السائدة والمهيمنة، عند كلا المفهومين النقديين هي كلمة (أين). فكلًا من الناقد الباحث عن معطيات عنصر المكان في نصه، والناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي على نصه، يسألان نفس السؤال، ألا وهو:

- أين وقعت أحداث هذا النص الأدبي؟.

obeikandi.com

من المعلوم لغويًا أن كلمة (أين) تعد كلمة سؤالية استفهامية، تأتي على الدوام وفي كل الأحوال وبلا استثناءات، بإجابات جغرافية الطابع، ولو على نطاق ضيق جدًا من المواقع والأماكن المحدودة الأبعاد كالمنزل، والشارع، والسوق، والسينما، وهكذا. إذًا كلمة (أين) في النهاية تحقق المبتغى الذي ينشده كلا المفهومين النقديين، ألا وهو البحث عن الجغرافيا والبيانات الجغرافية المكانية في ثنايا النص.

تحدثنا عن وجود تشابه، لكن لا يمكننا الحديث عن وجود تطابق بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وعنصر المكان. فالعلاقة بين كليهما هي علاقة الشيء بالشيء الأشمل منه، أو الشيء بالشيء الأكبر منه. وما أقصده هنا بالتحديد، هو أن مفهوم نظرية التحليل الجغرافي وبلا شك، هو أكبر وأعم وأشمل من مفهوم عنصر المكان بمعناه النقدي. وذلك كون عنصر المكان لا يغطي ببحثه وتقصيه سوى جزئية بسيطة من البحث والتقصي الجغرافي، تغطيها نظرية التحليل الجغرافي من خلال فرضية واحدة من فرضياتها الأربع أو حتى بأقل من ذلك. فمهمة تقصي عنصر المكان لا تهتم بالبحث عن المسميات الجغرافية كما تفعل النظرية، ولا تصنف العلامات الجغرافية وذلك كون علاماتها أصلًا من جنس أو صنف واحد، ولا تفسر العلامات الجغرافية على النحو الذي تؤديه النظرية، ولا تلقي بالًا لأثر المؤلف من أجل تحقيق فهم أفضل للعلامات الجغرافية ونقدها وتحليلها.

يمكننا القول باختصار، أن مهمة تقصي الناقد لعنصر المكان، تقتصر فقط على البحث عن الأماكن الجغرافية التي دارت فوقها أحداث النص الأدبي. وفي الغالب لا يذهب نقاد عنصر المكان إلى استخلاص وتحديد كافة الأماكن الجغرافية داخل النص، وإنما يركزوا اهتمامهم على ذكر الأماكن الأكثر أهمية ومركزية. وبالطبع لا يخوضوا في تفسير وتحليل هذه الأماكن على ذات النحو العميق والدقيق الذي تقوم به النظرية.

غالبًا ما يتم تناول عنصر المكان من قبل النقاد في إطار عام وشامل، أشبه ما يكون ببوتقة نقدية، تجمعه مع غيره من العناصر الأخرى كالشخصيات، واللغة، والأسلوب، والرمزية، وغيرها. لذلك يندر قيام الناقد في نقده بتناول عنصر المكان بمعزل عن بقية العناصر الأخرى، والتي بدورها تشاركه مهمتي بناء النص الأدبي ونقده. إذًا مهمة تقصي وتحديد عنصر المكان في النص الأدبي، غالبًا ما تكون مترافقة مع غيرها من المهمات النقدية الأخرى. أما نظرية التحليل الجغرافي فهي عبارة عن منظومة نقدية وتحليلية متكاملة، غالبًا ما يطبقها الناقد على النص لوحدها فقط ، وفي معزل عن أي مهمات نقدية أخرى قد ترافقها أو ترتبط بها.

مهمة نقد وتحليل عنصر المكان لا ترقى لكونها نظرية، وإنما يجوز اعتبارها كمفصل من مفاصل نظرية أكبر منها حجمًا. أما نظرية التحليل الجغرافي فهي بحد ذاتها نظرية، وليست كأي نظرية، بل نظرية متكاملة المضمون ومتجانسة القوام.

بإمكان عنصر المكان (النقدي) أن يتواجد في سائر نصوص الأدب، لأن وجوده يكون متوقف دومًا على وجود عنصر المكان (البنائي التكويني)، الذي يسبقه في التواجد في النص. عنصر المكان (البنائي التكويني) يتواجد بدوره في سائر نصوص الأدب بلا استثناء، فكما ذكرنا آنفًا، يستحيل أن ينشأ أو يخلق نص أدبي بلا وجود لعنصر المكان، والمتمثل في المواقع الجغرافية والأماكن التي تدور فوق بقعتها الأحداث.

لذلك فالناقد الساعي لمعرفة وتحديد ونقد عنصر المكان الخاص بنص أدبي معين، يمكنه أن يجد ضالته تلك ليس في نصه فحسب، بل في كافة نصوص الأدب وبلا استثناء، لأن نصوص الأدب بكافة أنواعها وصنوفها لا تخلو أبدًا من تواجد عنصر المكان فيها. فوجود عنصر المكان فيها، هو شيء من المسلمات.

أما نظرية التحليل الجغرافي للأدب فتختلف تمامًا عن عنصر المكان، إذ لا يمكن تطبيقها على سائر نصوص الأدب. بل باستطاعة الناقد الأدبي الجغرافي أن يطبق تلك النظرية، فقط على

النصوص ذات السمة أو النزعة الجغرافية الواضحة، وهي النصوص التي يصل محتوى العلامات الجغرافية أو المشاركة الجغرافية بداخلها، إلى حد أو درجة المبالغة الجغرافية.

إذًا أسباب ودواعي ومتطلبات البحث والتقصي عن عنصر المكان ونقده وتحليله، متواجدة في كافة نصوص الأدب بلا استثناء. أما أسباب ودواعي ومتطلبات تطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب، فلا توجد إلا في تلك النصوص التي تصل المشاركة الجغرافية فيها، إلى حد أو درجة المبالغة الجغرافية، والتي سنتناولها بالبحث المستفيض في قادم الشروحات.

دور عنصر المكان في تطبيق النظرية

عنصر المكان (النقدي بالتأكيد) يلعب دورًا هامًا ومركزيًا في تحديد وتعيين النصوص الأدبية المؤهلة والمناسبة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. عنصر المكان هو بمثابة البوصلة التي تهتدي بها سفينة الناقد المبحرة في بحر النص الأدبي. فمن خلال معاينته لعنصر المكان الخاص بنص أدبي معين، يستطيع الناقد الجغرافي أن يحكم ويقرر إذا ما كان هذا النص الأدبي صالحًا لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي أم لا. فقد اتفقنا آنفًا على شيئين لا بد من التذكير بهما. أولًا أن عنصر المكان هو بمثابة عملية مسح جغرافي Geographical Survey للمواقع والأماكن الجغرافية التي دارت فوقها أحداث النص الأدبي. وثانيًا أن تطبيق نظرية التحليل الجغرافي لا يتم إلا على النصوص التي وصلت إلى درجة المبالغة الجغرافية. وبناءًا على ما سبق ذكره في أولًا وثانيًا، نقول أن الناقد وفي الوضع الطبيعي والبديهي سوف يلجأ إلى معرفة معطيات عنصر المكان الخاص بالنص المراد تحليله، وذلك كي يطلع على كم ومقدار الأماكن والمواقع الجغرافية الواردة في ذلك النص. وبناءًا على معاينة الناقد لمعطيات عنصر المكان، سوف يكون بإمكانه حينئذ أن يأخذ فكرة عن مستوى المشاركة الجغرافية في النص، أي إذا ما ارتقت تلك المشاركة

إلى مستوى المبالغة الجغرافية أم لم ترتق. وبعدئذ سيكون بمقدور الناقد تحديد إمكانية أهلية النص لتطبيق النظرية من عدمها.

تحدثنا كثيرًا عن المبالغة الجغرافية، وقد حان الوقت للحديث عنها بشيء من الشرح والتفصيل. المبالغة الجغرافية هي عبارة عن مرحلة أو درجة تخيلية، لا وجود لها في الحقيقة، تمامًا كدائرة الاستواء وخط الفقر. عندما تصل النصوص الأدبية إلى هذه المرحلة أو الدرجة، فإنها تصير مؤهلة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

كما ذكرنا من قبل، فإن الجغرافيا تعد من المكونات الأساسية التي يتألف منها النص الأدبي، وبالتالي فإن وجود الجغرافيا ومساهمتها في خلق وتكوين سائر نصوص الأدب هو أمر طبيعي. لكن مقدار التواجد الجغرافي أو المشاركة الجغرافية داخل نصوص الأدب يختلف من نص إلى آخر، فهناك نصوص توجد بها العلامات الجغرافية بمقدار ضئيل، وهناك نصوص توجد بها العلامات الجغرافية بمقدار معقول، وهناك نصوص توجد بها العلامات الجغرافية بمقدار كبير.

المبالغة الجغرافية تعني، أن يكون ظهور العلامات الجغرافية في نص أدبي ما مبالغًا فيه، وزائدًا عن الحد الطبيعي. والمبالغة الجغرافية تعني أيضًا، أن تكون المساهمات الجغرافية في نص أدبي ما زائدة عن غيرها من المساهمات الأخرى، بحيث تكون لها الغلبة والهيمنة الواضحة على حبكة ومجريات ذلك النص.

من أجل التوضيح أكثر، أعتقد بأن النص الأدبي يصل إلى مرحلة أو درجة المبالغة الجغرافية، عندما يتنقل مسرح الأحداث الخاص بهذا النص بين ثلاثة بلدان فأكثر. أي أن النص الأدبي الذي تدور أحداثه في ثلاثة بلدان فأكثر، يكون بذلك قد وصل إلى درجة المبالغة الجغرافية، والتي بدورها تعتبر تأشيرة دخول هذا النص إلى عالم تطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. فرواية مثل روبنسون كروزو Robinson Crusoe تحقق الوصول إلى هذه المرحلة أو الدرجة بأريحية تامة. كيف لا وأحداث تلك الرواية دارت فيما يزيد عن ستة بلدان مختلفة.

أما رواية أوليفر تويست Oliver Twistفلا تحقق الوصول إلى هذه الدرجة أو المرحلة، كون مسرح الأحداث الخاص بهذه الرواية لم ينتقل ولو لمرة واحدة خارج نطاق الجزر البريطانية.

لا يمكن للناقد الجغرافي أن يعتمد على عنصر المكان (النقدي) فحسب، في تقصيه لمدى صلاحية عمل أدبي معين لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي. لأن عنصر المكان في ذلك العمل الأدبي، قد لا يعطي الناقد صورة كاملة ومتضحة تمام الوضوح، حول الحالة الجغرافية لذلك العمل الأدبي. وذلك كما ذكرنا آنفًا، كون عنصر المكان (النقدي بالطبع) يتسم بالسطحية في كثير من الأحيان. لذلك يتوجب على الناقد أن يتعرف على ذلك العمل الأدبي أو ذلك النص الأدبي، من خلال طرق أخرى تكميلية لعنصر المكان، كمطالعة النص بالقراءة السريعة، أو قراءة ملخص له، أو المرور على خطوطه العريضة وحبكته. لأن من شأن ذلك أن يتيح للناقد رؤية واطلاع أفضل، على المحتوى الجغرافي الخاص بالعمل أو النص الأدبي.

من خلال دراسة الناقد للنص الماثل أمامه، سواء أكانت تلك الدراسة تتم عبر استكشافه لمعطيات عنصر المكان الخاص بذلك النص، أو عبر استكشافه للنص من خلال وسائل أخرى. بإمكان ذلك الناقد أن يجد حالات أخرى، تصل فيها نصوص الأدب إلى مرحلة أو درجة المبالغة الجغرافية، وذلك بدون أن يتنقل مسرح الأحداث فيها بين ثلاثة بلدان فأكثر. وذلك في نصوص الأدب التي تكون أحداثها غنية بالأنشطة والممارسات الجغرافية وكذلك الأحداث الجغرافية.

فمثلًا رواية أمير الذباب Lord of the Flies تصل بفضل العلامات الجغرافية الغزيرة فيها، إلى مرحلة المبالغة الجغرافية، رغم أن أي من أحداث هذه الرواية لم يبرح تلك الجزيرة النائية في المحيط.

نوع آخر من الأعمال أو النصوص الأدبية، ربما تدور جميع أحداثها في بلد أو دولة واحدة، ولكنها بالرغم من ذلك تحقق الوصول إلى درجة المبالغة الجغرافية، وذلك كونها تحتوي على عدد

كبير من الأماكن والمواقع الجغرافية المحلية أو الداخلية (المدن ونحوها). أي أن أحداث ذلك النوع من النصوص قد لا تخرج خارج حدود الدولة الواحدة، ولكنها تتفرق وتتوزع على عدد كبير من الأماكن والمواقع الجغرافية الأهلية أو المحلية (المدن ونحوها).

إذًا لدينا ثلاث حالات، تصل من خلالها النصوص الأدبية إلى مرحلة أو درجة المبالغة الجغرافية. إذ تبدو الحالات الثلاث على النحو التالي:

١) في حالة نصوص الأدب التي تدور أحداثها في ثلاثة بلدان فأكثر.

٢) في حالة نصوص الأدب التي تحتوي على كم كبير من العلامات والأحداث والممارسات الجغرافية، بغض النظر عن عدد الدول أو البلدان، التي تدور فيها أحداث كل من هذه النصوص.

٣) في حالة نصوص الأدب التي تدور أحداثها في عدد كبير من الأماكن والمواقع الجغرافية المحلية (المدن ونحوها)، بغض النظر عن عدد الدول أو البلدان، التي تدور فيها أحداث كل من هذه النصوص.

بعض نصوص الأدب قد تنطبق عليها مواصفات حالتين من هذه الحالات، أو ربما ثلاثتها معًا. رواية مثل روبنسون كروزو تنطبق عليها المواصفات الواردة في الحالات الثلاث، فأحداث تلك الرواية كما سنرى لاحقًا في سياق الشرح والتفصيل، تنقلت بين عدد كبير من البلدان والمدن، كما وتحتوي أحداثها على عدد هائل من العلامات الجغرافية المتنوعة، وتحديدًا الأحداث والممارسات الجغرافية.

نفهم من جميع ما سبق، أن عنصر المكان هو أحد معايير القياس التي تمكن الناقد الجغرافي من معرفة حجم نفوذ الجغرافيا، داخل النص الذي يريد تحليله هذا الناقد. فبالرغم من سطحية عنصر المكان في الكثير من الأحيان، وبالرغم من عدم خوضه في تفاصيل وعمق المحتوى الجغرافي

obeikandl.com

للنص الأدبي، إلا أنه وعلى كل حال يعطي الناقد رؤية ولو بسيطة، حول المكنونات الجغرافية لذلك النص.

لذلك يتوجب على الناقد الجغرافي أن يأخذ عنصر المكان بعين الاعتبار، وذلك قبل إقدامه على تحليل أي نص أدبي كان. لما لذلك من فائدة كبيرة تعود بالتأكيد على الناقد وتيسر له مهمته التحليلية النقدية. فإطلاع الناقد الجغرافي على معطيات عنصر المكان الخاص بنص أدبي معين، يسهل عليه كثيرًا مهمة تحليل هذا النص، إن كان هذا النص يصلح من حيث الأساس لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

فعلى سبيل المثال إذا أراد ناقد جغرافي ما، أن يبحث في إمكانية تطبيق النظرية على رواية فرانز كافكا **Franz Kafka** المحاكمة **The Trial**، يتوجب على هذا الناقد وقبل كل شيء، أن يبحث عن نتائج ومخرجات بحث النقاد، الذين بحثوا من قبله عن معطيات وبيانات عنصر المكان الخاص بهذه الرواية. فمن شأن ذلك أن يساعده على تحديد موقف الرواية من النظرية وتطبيقها.

obeikandl.com